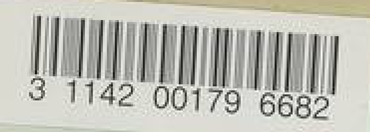
AL-GHALAYINI

AL-DIN WA-AL-'ILM



الدين والعلم

طبعة

وهل ينافي الدين العلم ؟

« الدين دواء ، والعلم غذاء ،
وليس الدواء بمغن عن الغذاء ،
ولا الغذاء بمغن عن الدواء »
(الامام الغزالي)

تأليف

الشيخ مصطفى الغلاييني

« تغمده الله برحمته »

نشرته

المكتبة الأهلية

al-Ghalāyīnī, Muṣṭafā

الدين والعلم

طبا ع

وهل ينافي الدين العلم؟

« الدين دواء ، والعلم غذاء ،
وليس الدواء بمغن عن الغذاء ،
ولا الغذاء بمغن عن الدواء »
(الامام الغزالي)

/al-Dīn wa-al-ʻilm/

تأليف
الشيخ مصطفى الغلاييني
« تغمده الله برحمته »

1931

بسم الله الرحمن الرحيم

الدين والعلم

١ـ الاصلاح والتهديم

إن الألفة ربيبة الوراثة ،

فشخص نُشأ على أخلاق وعادات وعقائد نَشّأه عليها أبواه ، وربّته عليها بيئته ، ليس في مقدور احد أن ينتزع ما في صدره من عاطفة يحنّ بها الى مألوفه ، ويذود عما اعتقده من عقيدة ، ونشأ عليه من خلق ، وألفه من عادة .

وأمة نبتت سائرة في طريق حياتها سيراً ربّاها عليه كرور الأعوام ، ومرور الأجيال ، حتى كوّنت لها تلك المُدَد المعرقة في القدم دستوراً كان لها نظاماً تطبقه غير مختارة ، كالآلات الصماء ، يُديرها البخار أو الكهرباء ، ولا ارادة لها في سيرها ولا اختيار .

مـن الصعب جـداً أن تعمد الى ذلك الشخص ـ الذي تأصلت فيه عاداته واخلاقه وعقائده ـ فتحمله على ترك ما ألفه حملاً . وقد يكون من السهل أن تُفرغ له النصح في قوالب لا ينفر منها شديد النفور ، وتمزج له جـدك بهزله ، فلا يراه غريباً كل الغرابة عن مألوفه ، وتخلع عـلى جديدك هلهلاً من قديمه ، أو على قديمه شفقاً من جديدك ، حتى يألف نموذجاً مما تريدان تحمله عليه . ولايكون ذلك إلا بالمألوف من القول ، والمعهود من النصيحة ، والجذّاب من الأساليب العملية النافعة .

وأصعبُ مـن ذلـك ان تعمد الى تلك الأمـة ، تُسلّط على جوانبها معاول الهدم ، وتُعمل في أركانها فؤوس التخريب ، ثم تبقى هادئة ساكنة ، لا تثور على من يريد هدمها ، ولا تعمد الى دفع شره وأذاه عنها . وأسهل من هذا أن تنتحي ـ في تحطيم اغلالها ، وكشفِ الرّين عن قلوبها ـ سبيلَ الحكمة ، فتسير بها سيراً أبطيئاً ، يُبعدها عما أُلفته ، ويُقرّبها الى ما يراد تربيتها عليه ، رويداً رويدا .

ولا يطمعنّ من يقودها في ان تنتزع عنها ما كسبته بالوراثة البعيدة العهد ، في ايام أو شهور او سنين . فذلك ليس في الامكان

أن يكون . بل لا بد من الصبر على هذه العقبات ، صبرَ الأبطال في ميدان النزال ، بل صبرَ الجبال الراسيات ، على عوادي النكبات .

ومن هنا ضلّ السبيلَ كثيرٌ ممن نصبوا أنفسهم لهذا الامر المهم . فهم يريدون ان يتعجلوا الثمرات قبل أوانها ، ليذوقوا نتائج أفكارهم ومساعيهم ، وهم أحياء . وقد غفلوا عن ان اعمار الأمم لا تُقاس بالأعوام ، وانما تقاس بالأجيال والأحقاب . فعادت مسعاتهم خائبة ، ورجعت أُمنيتهم خاسرة . وكذلك جزاء المستعجلين .

هذا كلامنا صريحاً مع هذه الفئة ، التي نعتقد انها خالصة النية ، لكنها أخطأت طريق الوصول الى غايتها التي تسعى اليها ، فضلّت سبيل الصواب في مسعاتها .

وهناك فئة لا ترجو إلا هدم الأمة بعُجَرها وبُجَرها ، وخيرها وشرها ، لتصبغها بصبغة غير صبغتها ، وتُخلّقها بأخلاق غير أخلاقها . فهي تريد أن تخلُقها خلقاً جديداً يُنسيها كل مواضيها ، ويحول بينها وبين دينها وأخلاقها وعاداتها ، حتى ما كان من تلك العادات والأخلاق فاضلاً حسنا . وكثيرةٌ هي تلك الأخلاق

الطيبة والعادات الحسنة . وقد جهلوا ، أو تجاهلوا ، أن بلوغ هذا الأمل ضربٌ من المحال ، أو هو المحال بعينه . فلكل قوم مألوف من عاداتهم واخلاقهم . ولكل امة تُراثٌ من بيئتها . ولكل شعب دم يجري في عروقه ، لا يقوى على تغيير خصائصه إلا الدهور ، تُسعِدُها الدهور .

هذه الفئة من الناس ، لا تزال دائبة في افساد نفوس الشبان والشابات ، وبثّ الإلحاد فيهم ، وتهوين أمر الأخلاق الفاضلة عليهم ، وتسهيل مآتي ما لا يتفق هو ودينهم وأخلاقهم وآدابهم القومية . فاذا ما آنسوا من أحد الاسترسال اليهم ، ورّطوه في مهواة الضلال ، حتى يستولي عليه الخبال ، ويضيع ما بقي فيه من ثمالة ايمان أو خلق طيب . واذا ما رأوا احداً لم يكترث لدعاياتهم ، ولم تؤثر فيه أهواؤهم ، وصموه بصمة الهمجية ، وخلعوا عليه رداء الرجعية ، وسلبوه كل فضيلة ، وألبسوه كل رذيلة . وأولئك هم كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلا .

ان هذه الفئة من الناس ، منها ما هو مجروف بتيار التقليد الأعمى ، فهو يرى كل ما عليه الناس في بلاد الغرب هدًى وصوابا . وكثيرٌ من هؤلاء لم يروا — أو لم يسمعوا — إلا قشوراً

زخرفتها الشهوات ، وبهارجَ زينتها النزعات . ولو قصدتَ الى ديار القوم ، باحثاً بحث مُنقّب ، لرأيت في جانب هذه الرذائل أخلاقاً عالية ، وعادات غالية ، ولَنظرتَ حيال هذا الالحاد إيماناً صادقا ، وتديّناً ناطقا .

وقد رأينا من الناس من لم يُحدثنا إلا عن علوم القوم وتقدّمهم في الصناعات وكل مقوّمات الحياة والعمران ، ثم عما هم عليه من الأخلاق الفاضلة ، والبعد عن رذائل هذه الحياة.

ورأينا منهم من لم يحدثنا إلا عن مراقصهم ، وبؤَر فجورهم ، وكثرة حاناتهم ، وانغماسهم في اللهو واللعب والفسوق والعصيان ، بأسلوب يستنزل العُصْم ، ويستهوي الأفئدة الابية .

فقلنا : اولئك شبابٌ ذهبوا الى ديار الغرب ، فلم يبحثوا إلا عما ذهبوا لاجله : من تحصيل علم او صناعة ينتفعون بها وينفعون . وهؤلاء شبابٌ كان الهدفَ — الذي يرمون اليه من سفرهم الي تلك الديار — أن يُرووا ظمأ شهواتهم في بؤَر تضيع فيها الاخلاق ، وتذوب فيها الاموال ، وتضْؤل فيها همم الرجال فما أبعدَ الفرقَ بين الغايتين !

ومن الهدّامين فئة مستأجرة للنكاية في أمتها ودينها وأخلاقها ولغتها . فهي تستوحي فيما تعمله من استأجرها، وتسير على برامج سهرت في تحبيرها الليال، وبُذلت في سبيل إذاعتها الأموال، واستعين على تنفيذها بالنساء والرجال، وحُميَ القائمون بها والقائمات، بكل ظاهر وباطن من القوى والحمايات . فلا تزال تستعين على نفث سمومها بالأغرار من شبان الأمة، الذين لم تهذبهم التربية البيتية، المبنية على دعائم الدين الصحيح والاخلاق الطيبة المرضيّة .

تستغلُّ هذه الفئة الهدّامة سذاجةَ شباننا وشوابنا ـ وهم لايزالون في أدوار الطلب ـ فتوحي اليهم زخرف القول غرورا، تنقضُ به على عقائدهم، وتصرفهم ببهرجه عن أخلاقهم، فينشئون على الاستهانة بالدين، وبكل ما يتصل به من خلق فاضل، ومزية كاملة .

وقد زاد الطين بلّة، أن من أقاموا أنفسهم حُرّاساً على حصون الدين المنيعة، منهم الغاطّ في نومه، لا يدري ما تفعل الأيام بدينه وأمته، ومنهم من لم يتعلم من الدين إلا ظواهرَ لا تُسمن ولا تُغني من جوع . فاذا سُئل عن امر من العلم الحاضر،

يتعارض في ظاهر الأمر مع الدين ، أرغى وأزبد ، وكفّر السائل ، أو بدّعه ، أو فسّقه . والسائلُ المسكين إنما يريد — في الأغلب — أن يهتدي الى وجه الصواب ، ويعرف الحق من الباطل . ولكن أنّى للمسئول أن يُدرك حقيقة المسألة ، فيُجيبَه بما يشفي غُلّته ؟ ! وما هو بأعلمَ — فيما يُسألُ — من السائل !! فيعمد الى تغطية جهله باللعن والتكفير والمنكر من القول . وما هكذا يكون شأن العلماء ، وبخاصة علماءَ الدين ، الموكولَ اليهم دفع الشّبَه عنه ، وحراستُه وحياطتُه بالأدلة والبراهين .

ومن هنا تزداد الشكوك تسرباً الى نفوس الناشئين والناشئات ، ويطغى سيلُ الإلحاد ، حتى يجتاح البلاد ، ويُهلك العباد .

ومن هنا ينشأ التعادي بين العلم والدين . وما هما إلا أخوان ، ينتحي كل واحد منهما ناحية يخدم بها الامة التي يترعرعان فيها ، ثم يلتقيان عند هدف المصلحة العامة .

(٢) موضوع الدين وموضوع العلم

الدين : وضعٌ آلهي سائقٌ لذوي العقول السليمة الى ما فيه خيرهم في دنياهم وآخرتهم . والاكوان — التي هي موضوع العلم — أوضاعٌ آلهية ، فلا يتخالفان ، وانما يتخالف

أهلوهما ويتطاحنون . ولو ترك كلُّ فريق العصبيّة الجاهلية جانباً ، وطرح التعصب المُردي أرضاً ، لتصافح الفريقان ، وعمل كلٌّ واحد منهما — في دائرته — على ما يُحيي الامة ، ويجعلها سعيدة في دنياها وآخرتها . ولكنّ في كل فريق فئة لها نزعات ، وفي صدرها نزغات . ومن هنا أتى الصراع بين العلم والدين . فشنّع كلٌّ قبيلٍ على الآخر ، وسفّهت كلّ طائفة رأي الاخرى ، فضلّ الناس بين هؤلاء وأولئك .

للعلم أن يسير في سبيله ، من غير ان يتعرض للدين وما جاء به . فما الدين إلاّ نفحة آلهية ، تنعش الافئدة ، وتروي غليل الصدور ، وتأخذ بيد الانسان الى مورد الفضيلة ، وتصدّه عن مآسن الرذيلة ، وتدفعه الى فعل الخيرات ، وتصرفه عن مآتي المنكرات ، وتحمله على معالي الخصال ، وتربأ به عن سفساف الخلال .

وللدين أن يسير في سبيله داعياً — بالمعروف والموعظة الحسنة — الى ما يُنقّي القلوب من الشوائب ويغسلها من المعايب ، ويطهرها من الادناس ، وينفي عنها خبَث الارجاس له كلُّ ذلك ، من غير ان يتعرض للعلم ونتائج العقول ،

ويحول دون تقدّم الانسان في أعماله وحاجاته الدنيوية ، فما العلم الا نور يُهتدى به في تفسير آيات الله في الاكوان ، وفي كتبه التي أنزلها على رسله لهداية خلقه ، وقوة لو استخدمها علماء الدين — فأحسنوا استخدامها — لتغلّبوا بها على نزغات الصدور ، وسلاح يَذودون به عن حياض الدين ، ودرع يتّقون به هجمات الملحدين ، وغَزوات الخوارج الهدامين .

للدين طريق قويم . وللعلم طريق قويم . وغاية الاول تطهير النفس . وغاية الآخر كشفُ اللّبس . فكلاهما يَقودان المرء الى ما فيه الخير والسعادة . فما هذا التعادي ؟! وما هذا الخلاف ؟! وما هذا التطاحن ؟!

والدين — كما قال الامام الغزالي — دواء ، والعلم غذاء ، وليس الدواء بمغن عن الغذاء . وليس الغذاء بمغن عن الدواء .»

جاء الدين لحمل الناس بالبرهان على الاعتراف بوجود الخالق سبحانه ، وتوحيده ، وتقديسه عما لا يليق بشأنه ، عزّ وجل . ومتى عقل الانسان هذه الحقيقة — التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا خلفها — فلا بُدّ أن يتطلع الى ما وراءها من الاعمال التي ترضي خالقه ، فينظرَ في الكتب السماوية ، فيعلم منها أن

عبادته سبحانه على الوجه اللائق بجلاله، هي أقدسُ المُقرّبات التي تُدنيه اليه. ثم يعلم بالممارسة أن هذه العبادة سببٌ لتهذيب نفسه، وحَملها على معالي الامور ومكارم الاخلاق.

فالدين، إنما جاء لتقرير هذه الحقائق وبثّها في الناس، حتى تَشرَبها النفوس، وتتغذّى بها الارواح، وتحيا بها العقول، ولم يجئ لتقرير الحقائق العلمية، وشرح الاصول الفنية، لان الدين عامٌ يشمل طبقاتِ الامة، فلا بدّ أن يكون موضوعه عاماً يسهل تناوله على الناس كافة. وموضوع العلوم الطبيعية والفلكية وغيرها، مما لا تتناوله الأفهام كلّها، ولا تُحيط به العقول جميعها. لذلك نرى تساهلا في بعض التعبير الوارد في الكتب المنزلة، تسهيلا على غير ارباب العقول السامية.

نعم جاء في بعض الآيات إشارات الى بعض المسائل الفلكية والعلمية، ولكنْ ليس القصد منها إثبات حقيقة أو نفيَ غيرها. وانما الغاية منها الاستدلالُ على عظمة الصانع وعظيم حكمته، وتنبيه الافكار الى تلك المسائل، ليغوص عليها من كان اهلاً لها، ويستخرجَ اللآلئ الكامنة في بحور هذه العوالم، الناطقة بأن لها موجداً أزلياً يسيّرُها في نظام الحكمة، ويديرها على محور العلم الأزلي.

٣ ـ هل ينافي الدين العلم

وليس في الدين ما ينافي العلم ، ولا ما يناهض ما أثبته البرهان الساطع ، وقام عليه الدليل القاطع . بل إن فيه إشارات تدعمه وتثبت رجحان ما يذهب اليه . ومن قال غير ذلك ، فما عليه الا الدليل الذي لا يدحض . وإلاّ فالقول المجرّد عن الحجة الدامغة مردود على قائله .

نرى كثيراً من علماء الدين ـ في الغابر والحاضر ـ قد أتقنوا العلوم الفلسفية والفلكية والطبيعية بأنواعها ، وحثّوا الناس على تعلّمها ، لأنها تزيد المؤمن ايماناً ، وتحمله على الاذعان بالبرهان ان الدين هو خير ما اخرج للناس . فلو كان الدين يناهض هذه العلوم ، لَنَبذوه ظهرياً . ولكنهم علموا أنها باحثةٌ عن أسرار هذا الكون ، دالّة على ما لصانعه من القوة والعظمة ، فازدادوا بها ايماناً مع ايمانهم ، واتخذوها سلاحاً يَذُودون به الملحدين عن حياض الدين .

العلوم بجملتها آياتٌ ناطقة ، وبراهين واضحة ، ودلائل شاهدة ، تفصح بأبلغ بيان ، وتدل بأجلى برهان ، على ما في هذه الأكوان من غريب الصنع واتقان الخلق . ففي

أحقر الاشياء ـ بله أعظمها ـ يرى الانسان من المدهشات ما يحمله على طأطأة الرأس امام مُبدعها العظيم ، و يحفزه للتسليم بالحجة الدامغة بأن لهذا الكون خالقاً مبدعاً ، سنّ له من الانظمة ما لم يَقدِر على خرقه إلاّ هـو : « كل شيء عنده بقدار » . وهذا هو سرّ القدرِ الوارد على ألسنة الشرائع الآلهية . وهو سرٌ دقيق ، خفي الاّ على من أنار الله فؤاده ، وهداه رشده . ونكتفي منه ـ في هذا المقام ـ بهذا التلميح ، الذي هو عند العاقل الفطن أوضح تصريح .

إذا كان شأن العلوم ماذكرنا ، فهل يُعقل أن يكون الدين الآلهي مناقضاً لها ، أو مناهضاً لمبادئها وغاياتها . ؟

ان الدين يأمر الانسان بالسعي لكسب ما يجعله سعيداً في دنياه وآخرته :

« ربّنا آتنا في الدنيـا حسنة ، وفي الآخـرة حسنـة ـ ولا تنس نصيبك من الدنيا ـ اعمل لدنياك كانك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كانك تموت غداً ، ليس بخيركم من ترك دنياه لآخرته ، ولا آخرته لدنياه ، حتى يُصيب منهما جميعاً » .

وأية سعادة في الدنيا خيرٌ مـن الاطلاع عـلى أسرار

الكائنات ومعرفة أطوارها وتقلباتها ، ثم الانتفاع بما علم ، واستخدام الطبيعة وتسخيرها ، لتكون رهن اشارته وطوع أمره ؟!

الدين يقول : « قل انظروا ماذا في السموات والأرض » ويقول : « إنّ في خلق السموات والأرض ، واختلافِ الليل والنهار ، لآياتٍ لأولي الألباب ، الذين يذكرون الله قياماً وقُعوداً وعلى جنوبهم ، ويتفكرون في خلق السموات والأرض : ربنا ما خلقت هذا باطلا ، سبحانك ، فقِنا عذابَ النار » .

ويقول: « إنّ في خلق السموات والأرض ،واختلافِ الليل والنهار ، والفلكِ التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماءٍ فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبثّ فيها من كل دابة — وتصريفِ الرياح والسحاب المُسخّر بين السماء والأرض ، لآياتٍ لقومٍ يعقلون » .

ويقول : « ألم ترَ أن الله سخّر لكم ما في السموات وما في الأرض ، وأسبغ عليكم نِعمهُ ظاهرةً وباطنةً ؟! » .

وانت تعلم أنّ التسخير لا بد له من وسائلَ واسبابِ

يُستعان بها على تصريف ما سخّره الله لنا ، ولا ينقاد لنا ما في السموات والأرض ، إلا بالعلوم ، التي يزعم أعداء الدين ، وبعضُ المنتمين اليه ، أنها تُناقضه او تناهضه وتعمل على هدمه ، ولو تفكروا قليلاً لعلموا أنها تمشي واياه في سبيل واحدة ، وتأخذ بناصره في كثير من المُعضِلات ، ويَشُد أزرها في كثير من الحالات .

وما أحسن ماجاء في كتاب (التربية) للفيلسوف الانكليزي (هربرت سبنسر) المُتوَفَّى سنة ثلاث وتسعمائة والف (١٩٠٣ م.) . قال :

« إنّ العلم الطبيعي لا يناقض الدين ... متى اتفق العلم والدين نَمَوا نُمُواً صحيحا . فالدين ينموا بامتداد جذوره وتغذية اصوله في رياض العلم الصحيح . والعلم الصحيح يؤيد الدين ويَشُد أزره ، فيكون قوياً متينا .... فمن ذا الذي يرى منافاة الدين للعلم ؟ ألا انما المنافي للدين هو تركُ العلم ، والجهلُ بما أحاط بنا من المخلوقات .... لذلك اكرر القول بأن مخالفة الدين ليست هي في دراسة العلم الطبيعي ، بل هي في تركه والانصراف عنه ا ألا ان التوجه للعلم الطبيعي عبادة صامتة ، وتسبيح عملي ....

ان العلم الطبيعي موافق للدين ، وهو مُقوِّ له ومُؤيد من جهات كثيرة . انه يري الانسان عالماً منظماً بحركات ثابتة جارية على نظام لا تتخطاه ، وناموس لا تتعدّاه . وهذا النظام يدل على قوة وراءه ، وحكمة أبدعته وسوّته أحسن تسوية . العلم الطبيعي يعرّفنا سبب الكائنات معرفة صحيحة ، ويُعلمنا أن النتائج تتبع المقدمات ، وأن المُسبّبات تتلو الأسباب ، وأن الثواب والعقاب مرتبطان بالاعمال ارتباط المُسبّبات بأسبابها . فيوقن الطالب حينئذ ايقاناً تاماً بهما ، وان ذلك ارتقاء في معارج الكمال والسعادة العليا . والعلم الطبيعي يُعرّفنا أن لنا حداً محدوداً لا نتجاوزه في العلم ، فلا نتخطاه الى معرفة السبب الاول ــ صانع الكائنات ــ وحقيقته . لكنه يهدينا الى الحدود التي نقف دونها ولا نتجاوزها ، فلا نَصلُ الى كنهه ومعرفة حقيقته ..... اياك ان تظن ان العالم الطبيعي هو من يعرف التحليل الكيمائي ، أو يقرأ الهندسة . وانما نعني به ذلك العالم الذي يتخذ أسافل الحقائق سُلماً لأعاليها ، حتى يبلغ الحقيقة العليا . ومن ذا سواه يعرف الهُوّة السحيقة الفاصلة ما بين ذلك الصانع الحكيم ــ الذي جعل الطبيعة والحياة والعقل من مظاهر ذاته ــ وبين العقل الآدمي والفكر الانساني ؟ ! إن الفرق لعظيم » .

ونقل (سبنسر) في كتابه هذا ما قاله الاستاذ (هكسلي) وهو :

« ان العلم الطبيعي الصحيح والدين الصحيح توأمان ، اذا انفصل احدهما عن الآخر خرا صريعين ، وماتا حتف انفهما » اه

هذا ما قاله الفيلسوف (سبنسر) . فقارن بينه وبين ما ورد في القرآن الكريم من الآيات الكثيرة الحاثة على النظر في الاكوان حثا ، تجد كلامه كالشرح لها ، وان تكن — في بيانها ووضوحها وبلاغتها المعجزة — لا تحتاج الى شرح ولا بيان .

ان النزاع بين اهل الدين واهل العلم لا يزال قائما . وما فتئا يتراميان عن قوس الشقاق ، يصوب كل جيش منهما الى الآخر سهام النقد والطعن . ولم يخل من هذا الصراع عصر من العصور منذ عرف الناس الدين وعرفوا العلم .

٤ — حقيقة النزاع بين العلم والدين :

وليس هذا النزاع قائماً بين العلم والدين . بل هو بين العلم وما ألفه الناس من العادات ، وان يكن لأكثره صلة بالدين . وذلك خلق طبيعي في نفوس البشر ، فانها تثور على كل جديد ، وتستعين بكل ما أوتيته من قوة للقضاء على رأي علمي يحدث ،

وان كان معه من البراهين ما ليس في متناول المعاند ان يُدحضه فاذا طُلب اليها أن تنظر في هذا الجديد بالنظر المجرد عن الهوى، وعن المألوف من العقائد والعادات، نفرت من ذلك نفور من يرى النار تنساب اليه، وقد اندلعت ألسنتها نحوه، فلا يفكر بوسيلة تدفع عنه اذاها، إلا في الهرب من طريقها. ولو أنصف لصَمد لها، عاملًا على دفع اذاها بكل ما يستطيع من قوة، إذ ربما كان وراءها خيرٌ يؤتاه.

وهكذا يتمكن الجديد من احتلال ما جلا عنه القديم. فلا يزال القديم ينكمش، والجديد يطارده، حتى يقضي عليه.

هذا هو الشأن بين العلم والدين:

يطغى سيلُ الجديد من العلم والاخلاق على حصون الدين والاخلاق. فلا يزال يُلِح عليها بالشدةِ، ويُلحف في الاقتحام. فان رأى في طريقه قوةً ومنعةً وشدةَ دَفعٍ، تحول عنها في سيره، بعد ان يوهن شيئاً من قوى حفَظَتها، ويُحدثَ في جنباتها بعض الأحداث. فينشط اهلوها الى اصلاح ما أثاته يدُ الحدثان. ثم انهم — ولا بُدّ — ناظرون الى حقيقة ما طرأ عليهم، والى انه هل كان ضرراً كله؟ فان وراء الشر لخيراً، وان

مع الضر لنفعا ،فحينئذ يستفيدون من خيره ، ويقضون على ما ترك من شره .

وهكذا يكون اهل العقل من حفظة الدين القويم وحرسة الأخلاق الفاضلة . وهكذا يكون اسلوب الانتفاع من الجديد ونهج المحافظة على القديم .

وان رأى هذا السيل ــ من جديد العلم والاخلاق ــ غطيطاً من خزنتها ، وجبناً من حراسها ، جرفها حتى يتركها اثراً بعد عين . وهنا الطامة الكبرى ، والبالية العظمى . وهذا مانحن فيه . وها نحن اولاء نعاين مقومات مفاسده ولأوائه ، ونحس سوء آثاره ووطأة ضرّائه .

وقد كان من رحمة الله بعباده ــ حفظاً لدين الحق ــ ان جعل في كل عصر من علماء الدين من يعمد لهذه النار ، وامامه من وسائل الاطفاء ما يقضي به على شرورها ، وعن يمينه وشماله من القوى مايمكنه من استخدام هذا الشر للخير والمصلحة العامة .

وكان من كرمه ، سبحانه ، ان نصب لرد عوادي ذلك السيل حرّاساً اقوياء ، وحفاظاً امناء ، ــ يدفعونه ــ بما اوتوا من قوة في اليقين ، وبسطة في العلم ، ورجاحه في العقل ــ عن العيث في الامة فسادا ، ويحولونه الى خيرها وسعادتها وتهذيبها واصلاحها .

٥ ـ هل بين الدين والعلم من عداوة ؟

ليس بين العلم والدين ما يصح ان يسمى عداوة . وربما كان بين ما هو من الظنيات في الدين ، وما هو من الظنيات في العلم ، جدال ونضال ، يعظمان تارة ، ويضؤلان تارة اخرى ، بحسب قوة احدهما وضعف الآخر . اما بين ما هو قطعي في الدين ، وماهو قطعي في العلم ، فلا جدال ولانضال ، ولاتعادي ولا تناحر .

ظني الدين وظني العلم ، كلاهما ليس مبنياً على اليقين المقطوع بصحته ، وأنه هكذا لا محالة . وانما يكون بحسب الظاهر ، أو الدليل غير القطعي في الاول ، وبحسب بعض التجارب ، او النظريات الضعيفة او القوية في الآخر . فالجدال بينهما ، انما هو في امر لم يبلغ مبلغ اليقين الجازم . والنضال ، انما هو من عصبية كل واحد منهما لقضية ظنية عنده ، ليست من الامر المقطوع به ، والذي لا يعتريه الشك ، ولا يأتيه النقض من بين يديه ولا من خلفه .

ان بعض ما يتمسك به اهل الدين ، ويلاحون فيه اهل العلم ، ظنيُّ الدلالة ، وان كان قطعيَّ المورد . وبعضه ظني الدلالة

والمـورد . وبعضه قطعي الدلالة ، ظني المـورد . فلا يصح ان يكون ما كان كذلك امراً لا محيد عنه ، يجب التسليم بما يعطيه ظاهره تسليماً مطلقا . وقد اختلف العلماء في تأويل ذلك اختلافاً كثيرا . وزيّف كل واحد منهم رأيَ الآخر فيه . ومن هنا جاء اختلاف أئمة الدين في كثير من القضايا ، التي تستند الى ما كان ظنيّ الدلالة او المورد . وما كان اختلافهم هذا بمخرجهم من الدين . وان بين احدهم والآخر من الاختلاف - في الرأي والفهم - ما يعرفه المطلع على مذاهبهم ، وما اختلفوا فيه من القضايا التي يُخطئها العد ، ولا يقوى عليها الحصر .

وكذلك بعض ما يتمسك به اهـل العلم ، ويخاصمون فيه اهل الدين ، هو ظنيّ من الظنيات ، التي لا يُظَن أنه يأتي عليها زمان تبلغ فيه مبلغ اليقين ، الذي لا تحوم حوله الشبهات : « ما أشهدتم خلق السموات والأرض ولا خلق انفسهم » .

فبعض القضايا الدينية ، وبعض القضايا العلمية - التي يدافع عنها هؤلاء واولئك - إن هي إلا تظنّيات ، يصح أن تُقابل بتظنيات مثلها قوة ، وان اشتهرت تلك اشتهاراً كاد يُلحقها بالامر الكائن الواقع . وهي في الحقيقة لم تخرج عن الظـن . فزعمُ من لم يُنضجه العلم أن ذلك امرٌ قطعي ، غير قابل للنقض

قولٌ فاسد ، ورأيٌ خاطيء . والناقد البصير لا يخرج في اعتقاده عن كون ذلك الامر ظنياً ، يجوز ان ينقضه ظنٌ آخر أقوى برهانا ، وأمتن حجة .

٦ـ آراء الناس في العلم والدين :

الناس ـ من حيث الدينُ والعلمُ ـ على ثلاثة اقسام :

قسمٌ لا يؤمن إلا بما جاء على لسان العلم ، غيرَ ملتفت الى القطعي من قواعد العلم والنظري منها . وقد يعلم ان اليقينيّ منها قليلٌ بالنسبة الى ما هو نظري .

وهؤلاء لم يدرسوا الدين ، ولم يطّلعوا على ما فيه من الآيات الباهرات ، والحجج النيرات ، وما حواه من بديع الحكمة ، وما وعاه من جليل العلم . ومن قرأ منهم شيئاً من الدين ، لم يتلقه من ينبوعه الصافي . وانما تلقفه من بعض العجائز ، او من بعض من لم يدرس منه إلا القشور ، او من كتب لا تُسمن ولا تُغني من جوع . فاذا قرعته بالحجة الدامغة ، قال : ما كنت اظنّ ذلك في الدين ، او مما جاء به الدين .

وهذا القسم ـ الذي لا يؤمن إلا بما يقوله العلم الكوني ـ كثير منهم مقلدون ، يُرددون ما يسمعون او يقرءون . فاذا

طلبتَ اليهم ان يشرحوا ما يعتقدون ، عرتهُم الأُكنةُ ، وأصابهم الحَصر . ولا حرج عليهم ان يعجزوا ، فانما هم مقلّدون أتباع . بل ان اساتذتهم انفسهم مقلّدون ايضاً فيما يُعلّمون ، وهم لا يستطيعون ان ينكروا هذا .

لو رجع هذا القسم الى ينبوع الدين — وهو كتاب الله المنزل — ودرسه حقّ الدرس ، ووازن بينه وبين العلم الذي يتعشّقه ، لرأى ان الدين الحُق ، والعلم الحق ، أَخوان ، ابوهما الحق ، وامهما الحقيقة . ولكنّ انصراف النابتة عن درس الدين حق درسه ، الى درس العلم درساً مجردا ، أوقعهم في هذه الوَرطة وانزلهم هذه المنزلَة ، منزلة النعيّ على الدين ، وعلى كل مايتصل به من سبب :

منزلةٌ ما خِلتُها يرضى بها   لنفسه ذو ادبٍ ولا حِجا

فاما ان يُعطونا من وقتهم شيئاً لفهم الكتاب المنزل ، فيروا انهم كانوا في انتقاصهم الدين واهمين . وإما ان يكفوا عن الطعن عليه وازدرائه ، وتنفير شباب الأمة منه ، بدعوى انه يناقض العلم ، وان العلم قد نسفه من اساسه نسفا . وهم لم يدر كوامن العلم الا علالة لا تشفي عِلة ، ولا تُروي غلة ولم يعرفوا من الدين

إلا ما تعرفه العجائز .

فها نحن اولاً ، نقول لهم : ان الدين والعلم اخوان . وهذه براهيننا مسطورة في كتاب الله ، ناطقة بها آياته ، فما انتم فاعلون ؟

والقسم الثاني ، يكفر بآيات العلم — حتى ما كان منها عين اليقين — وان لم يخالف شيءٌ من ذلك آيات الدين الحق . بل قد تورّطَ الحشويةُ من هذا القسم ، فأوّلوا ما وافق من آياته آيات العلم تأويلاً سقيماً ، كيلا ينقادوا الى القول بما يقوله علماءُ الطبيعة او الفلك . وكثيرٌ من هذه الأقوال — التي يظنون ، او يظنُّ غيرهم ، انها حديثة العهد — قد قال بها علماؤهم الأولون وذكروها صراحةً في كتبهم ، حتى في تفسير كتاب الله المبين . فعلوا ذلك ، كما فعلت فئةٌ منهم من قبلهم ، قالت بقدم القرآن الكريم ، لفظهِ وحروفه — حتى غالت طائفةٌ منهم ، فقالت بقدم ورقه وجلده ومداده — كيلا تنساق ، غيرَ مختارة ، الى القول بخلق القرآن القديم ، كلامِ الله النفسي . وهل تعلم أن ماتقرؤه انما هو ترجمان كلام الله النفسي ، المنزه عن الحروف والأصوات ، وانه الفاظ تتجدد بتجدد القراءة . وكلا طرَفَي قصد الأمور ذميم . حمانا الله من الإفراط والتفريط . ووقانا من مزالق الزلل .

ودينُ الله ما بين المُقصِّر والغالي ، كما ورد في بعض الآثار .

والقسم الثالث — ونحن منهم — يؤمن بما يقوله العلم الصحيح الحق . ولا يُزري عليه . ويؤمن بما جاء به الدين الحق على لسان كتابه المنزل . ويعتقد ان ليس فيه من الآيات القطعية الدلالة . ما يتعارض مع قطعيات العلم . وما عارض من ظنيات العلم ظنيات الدين ، فاما ان نؤوّل ظنيّ الدين ، حتى ينساق مع ظني العلم . وإما ان نتمسك بظني الدين ، من غير ان نُعكّر على علماء الكون صفوَ مباحثهم ، ونقف عثرةً في سبيل جدهم واجتهادهم . بل نصافحهم مصافحة الأخ اخاه ، ونُثني على هممهم وما يبذلون — في سبيل تحقيق مسائل العلم — من جهد ونَصب .

ويعجبني قول بعضهم في هذا الشأن : « ليس لنا ان نرفض كل مسألة فنية تُنسب للطبيعيات ، كما يفعله بعض من ينتمون للدينيات ، يراؤون بالورع ، فيشينون الدين والعلم . وليس علينا ان نقبل كل مسألة فنية قد تكون من قبيل ما ذكرنا . وما كل مسألة جرت اليها تطوافات بعض الباحثين في الفلكيات يجب ان تُعتبر عقيدة مقدسة » .

ذلك حق ، لا مرية فيه . فلا يجوز للعالم الديني ان يَشين الدين والعلم معاً بتكذيب كل ما جاء به العلم . كما لا يجوز للعالم الكوني ان يتهجم على ما جاء به الدين ، مما قد يراه ـ بحسب الظاهر ـ مخالفاً لما اظهره العلم الحاضر . بل على الفريقين ان يحترما العلم والدين . فسير الدينيُّ في سبيله قائلاً : لا بُدَّ ان يجيء يوم تنجلي فيه الحقيقة ، ويذهب الزبدُ جفاء ، ويمكثُ ما ينفعُ الناس في الارض ، كما انجلى الغطاء عن كثير من آيات الله ، كشف عن اسرارها العلم الكوني الحاضر نفسه . ويسير العلمي في طريقه قائلا : هـذا ما أوصلتني اليه وسائل العلم العتيدة . وربما يحدث من نظريات العلم ما يغير بعض ما يراه اليوم ، كما حدث اليوم من نظرياته ما هدم بعض ما بناه بالأمس . فلعل للدين وجهاً لا استطيع اكتناه سره اليوم . فربما حدثت في المستقبل نظريات تجعل ما يراه الدين هو الصواب .

٧ ـ غاية العلم وغاية الدين :

ان العلم ، يا ايها الناس ، ـ لم يبلغ بعد ـ ولن يبلغ درجة ليس وراءها درجة . فهو لم يزل طفلاً في مهده . وفي كل يوم تحدث نظريات . تموت بحياتها نظريات ، وفي كل يوم يكشف العلماء

عن ارض جديدة ، ومخلوقات جديدة ، ونجوم جديدة ، ومواد جديدة . وفي كل يوم يظهر للعلماء مخبئات تقضي على ما اصّلوه من اصول وفرّعوه من فروع . فاذا رأيتم في الدين ما لم يكشف عنه العلم ، فلا تتهجموا عليه ، ولا تنتقصوه . فلابد ان يظهر سرُّ ما تجهلون . فقد كان علماء الكون تتقاذفهم رياح الحيرة في تأويل كثير من شؤون هذه الحياة ، وفي تفسير وفير من الحوادث الكونية ، حتى وصلوا الى الكشف عن بعض الاسرار . ولمّا يصلوا الى اكتناه اكثر ما يبذلون وسعهم لبلوغه . فهم لم يزالوا في لُجج الحيرة يتخبطون .

وان الدين ، يا ايها الناس ، لم يُشرع إلا لتطهير النفوس بماء الاعتقاد بالواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفؤاً احد . ولتنقيتها من دنس الشرك ، وتهذيبها من شوائب الأخلاق الفاسدة ، وارشادها الى ما فيه خيرها وسعادتها . فلم يُنزله الله على انبيائه ورسله ليفصّلوا للناس نظريات العلوم ، ويبسطوا لهم قواعد الكيمياء والطب والرياضيات ، ويشرحوا لهم الأفلاك . بل كان السكوت عن هذا من رحمة الله ، لتنزيه دينه عن عبث العابثين . لان تلك النظريات العلمية لا تثبت على حال ، بل يعتورها النفي والاثبات ، والنقض والابرام ، آناً بعد آن . فلو جاء الدين بمثل ذلك ، لكان اُلعوبةً في

ايدي الناس ، يؤمنون به اليوم، ويكفرون به غدا ، ويُصدق به من وافق هواه واتفقت نظريته مع آياته، ويكذب به وينقضه من ادى به عقله واختباره الناقص الى غير ماجاء في آياته الكريمة على ان ما جاء فيه من آيات العلم الكوني — في معرض العبرة والموعظة - إن كان صريحاً قطعيّ الدلالة ، فلا سبيل الى دفعه ، إذ لا يكون — في حال من الاحوال — متعارضاً مع قطعيات العلم ، كما سنقص عليك نبأ ذلك .

وقد ورد في الكتاب المنزل آيات فيها اشارات تنبيء عن اسلوب خلق السموات والارض والكواكب والانسان والحيوان والنبات والجماد . وكل ذلك لم ينكره العلم الحاضر ، بل كان هدى للقارئين، ونوراً اضاء السبيل للمستبصرين، ومرشداً لمن يزاول فهمه وتفسيره . لكنْ لم يُذكر فيه ما ذُكر لتأصيل اصول علمية ، وتثبيتِ قواعدَ فنية . بل ذُكر ذلك في سياق العظة للاعتبار ، وفي مورد الارشاد للاستدلال على قدرة الخالق وحكمته في مخلوقاته ، ليوجه الانسان ببصيرته الى خالقه ، فيسبحه ويمجده ويعبده حق عبادته . ثم ينصرف الى امر الكدح والعمل لدنياه ، مقيداً باتباع ما امر الله به على لسان انبيائه : من حب الخير ، وانتهاج سنن الفضيلة ، وسلوك سبيل الاعتدال

في حياته كلها .

لذلك ترى ما يَقُصه من القَصص ــ يسوقه في تضاعيف بعض الشئون ــ لم يُقصه مرتباً ترتيب كتب القصص والتاريخ. بل قد يبدأ بالقصة من آخرها ، لان المغزى فيه . وترى ايضاً ان ما يذكره في سَياق دلائل قدرته للعبرة ــ من آيات التكوين وكيفية الخليقة ــ لم يذكره منظماً تنظيم كتب العلم ، المقصود منها ترتيب مسائله وتحقيق اصولها ، بل ذكر ذلك مبثوثاً هنا وهناك ، في اثناء الموضوعات التي من اجلها انزل الله كتابه . فربما ذكر في سورة للمناسبة امراً من العلم الكوني ، ثم ذكر بعده غيره مما يأتلف معه ، ثم اعاد هذا المعنى في سورة اخرى ، مقدماً فيها ما كان قد اخره في الاولى . والحكمة في ذلك لاتخفى على من يقارن بين المناسبتين . وكل ذلك لم يغفل عنه اذكياء مُفَسري كتاب الله . وانما كان الامر على ما ذكرنا ، لأن الغاية من ذكر القصص وآيات العلم ، ليست تأليفَ كتاب خاص بالتاريخ او العلم ، وانما كان ذكرُ ذلك للمناسبات ، تمكيناً للعبرة وتثبيتاً للموعظة ، وتوضيحاً للحكمة ، وتقوية لدليل القدرة .

وقد ادرك هذا المتأخرون من اهل الادب ــ في ديار الغرب ــ الذين يؤلفون الروايات ، او يحاضرون الناس بالموضوعات

العامة ، الى تكسبهم علماً اجمالياً بشيء يجهلونه . فترى هؤلاء يحاضرون الناس ، فيستطردون بالمناسبة الى الاستشهاد على موضوعهم بما يُقوي حججهم ، ويُمكن كلامهم في نفوس السامعين او القارئين . ثم لا يكون ما يستشهدون به هو الهدف الذي يرمون اليه في محاضراتهم او رسائلهم . لذلك لا يأتون به مُنَسَّقاً مبَوّبا ، قد رُتب فيه كلُّ شيء في موضعه اللائق به . وقد سبقهم الى ذلك علماؤنا في كتب الأدب والمحاضرات : ككامل المبرد ، وامالي القالي ، وأمالي الرضى ، وغير ذلك من الكتب . وهذا سرٌّ من اسرار إعجاز القرآن ، أدركه من اقتفي أثرَهُ من ادباء العلماء ، قبل الآن ، وفي هذا الزمان .

٨ ـ القطعي والظني من قضايا العلم والدين :

ان ما كان من آيات الكتاب الكريم صريحاً في امر ـ بحيث يكون قطعيَّ الدلالة عليه ـ قبلناه قبولا ، وآمنا به ايمانا ، وان خالف نظريات العلم الظنية ، كوجود العرش والكرسي والملائكة والجن . فقد جاء الدين صريحاً في ذلك ، فآمنا به من طريق الخبر الصادق ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . ولا سبيل الى معرفة ذلك من طريق المراصد الفلكية ،

ولا من مناهج الأقيسة العقلية ، لانه من عالم الغيب . فاذا قال علماء الفن : ليس هناك عرش ولا كرسي ولا ملائكة ولا جن ، لأن الآلات الرصدية لم تُنبئنا ذلك ، قلنا لهم : ان عدم الوجود لا يدل على عدم الموجود . وكم من كوكب جهله الأولون — لعدم الوسائل الكافية — جاء من بعدهم فأثبته . وكأين من كوكب جهله من قبلكم — ممن استدرك على من قبله — جئتم انتم بمجاهركم فأثبتموه . وسيأتي من بعدكم ، فيستدرك عليكم مالم تعرفوه . وهكذا دواليك ، الى ان يقضي الله امراً كان مفعولا .

وما كان من آيات العلم قطعياً لا شبهة فيه ، آمنا به وصدقناه ، وان خالف ما كان ظنيّ الدلالة في الدين ، لأن ما كان ظنيّ الدلالة ، معناه انه محتمل — بظاهر لفظه — للتأويل على وجهين او أوجه . وقد صرح علماؤنا عليهم الرحمة بذلك تصريحاً قطع على المُخرّفين والحشويين كل طريق . وليس — والحمد لله — في كتاب الله ، مما هو قطعيُّ الدلاله ، ما يخالف قطعيّ البرهان في العلم . فاما ان يكون هذا القطعيُّ في العلم مسكوتاً عنه في الدين ، فنؤمن به من غير ما جدال . وإما ان يكون مصرحاً به فيه ، فلا يمكن ان يكون مخالفاً لما هو قطعيٌّ في العلم .

وما كان من ظنيات العلم قد سكت عنه الدين ، فلا شيء يمنعنا ان نسلّم به ، حتى يجيء من العلم ما ينقضه .

وانما مورد النزاع ـ بين علماء الدين ـ فيما هو ظنيٌّ عند الطائفتين . فمنهم من يقول : نتمسك بظني الدين ، فهو أولى . ومنهم من يقول : يجوز لنا ان نؤَوله حتى يتلاقى مع ظني العلم . ولا حرج على من يقول بهذا او ذاك . وانما الحرج على من يسفِّه رأي هذا او ذاك . وان نفسي مطمئنة الى ما يذهب اليه الفريق الاول ، من غير ان انعَى على الفريق الآخر رأيه وما يذهب اليه .

وهاك مثالا على ذلك :

العلم لا يُثبت ان هناك شيئاً يسمى سماء غير هـذه الكواكب ، لأن ما لديه من الوسائل لم يُصعِّد به في المعرفة الى اكثر مما وصل اليه ، بما عنده من الآلات والمراصد . وهذا لا يمنع ان يكون هناك ـ غير هذه الكواكب ـ سماوات ، لكل سماء منها مجموعة من هذه الكواكب . وقد جاء ظاهر الآيات بوجود سماوات سبع مزينة بالكواكب . وهذا لا يمنع ايضاً ان يكون المرادُ بالسماوات امّهات الكواكب ، ويكون ما يَتبَعُ هذه الأمهاتِ ـ من الكواكب التابعة لها ـ زينةً لها .

ومن علمائنا الأولين من اشار الى ان هذه الافلاك ـ او امهات الكواكب ـ هي السماوات . ومنهم الامـام الرازي في تفسير سورة البقرة ، عند قوله تعـالى : « خلق لكم ما في الأرض جميعا، ثم استوى على السماء » . فوجود سماوات غير هذه الافلاك او عدمه ، ليس قطعياً في الدين ، ولا في العلم .

اما انا فأقول : ان ظاهر الآيات يحملني على ان اعتقد ان السماوات ـ التي لم تهتد اليها المراصد والمجاهر ـ هي غير امهات الأفلاك . وهـذا لا يدعوني الى ان اشنع عـلى من يقول بغير هذا القول . فلكلٍّ وجهة هو مُولّيها .

وإليك مثالا آخر :

ظاهر الآيات يدلُّ على ان السماوات ـ او امهات الافلاك ـ سبعٌ . والعلم يقول : انها اكثر من ذلك . وقد جنح الرازي في تفسيره الى ان العدد لا مفهومَ له . (وهذا معروف في اساليب اللغة العربية) فكأنه يقول لا حرجَ على من يقـول انها اكثر من سبع ، لأن العدد لا تتعين دلالته علي كمية محـدودة . فان كانت السماوات اكثر من سبع ، فالسبع منها . ولكن لا يجوز ان تكون اقلّ . اما انا فأقول : ـ بناء على اعتقادي ان السماوات

غير هذه الأفلاك - إنها سبعٌ تبعاً لظاهر القرآن الكريم . ومن قال : ان الأفلاك هي السماوات ، فله ان يوجه الآية توجيهاً آخر لم يتنبه اليه الرازي ، وذلك أن من عادة العرب انهم اذا ارادوا ان يبالغوا في العدد ، ذكروا السبعة ، او السبعين ، او سبعَ المئة ، او سبعة الآلاف ، ونحوها ، يريدون بذلك الكثرة ، لا حقيقة هذه الاعداد . وعلى هذا قوله تعالى : « إن تستغفر لهم سبعين مرةً فلن يغفر الله لهم » ، فهو لا يريد حقيقة السبعين ، وانما أراد الكثرة في الاستغفار ، كما يعرف ذلك من زاول كلام العرب وعرف اساليبهم .

وخلاصة القول ان القضايا ستّ :

ما هو قطعيٌّ في الدين والعلم . فهذا لا جدال فيه .

وما هو ظنيٌّ في العلم والدين . فمن علماء الدين من يتمسك بظني الدين . ومنهم من يتمسك بظني العلم ، ويؤَول ظني الدين .

وما هو قطعيٌّ في العلم ظنيٌّ في الدين . فهذا نُؤمن به ، ونُؤَول ظنيَّ الدين .

وما هو ظنيٌّ في العلم ، وقد سكت عنه الدين . فهذا نسلّم به .

وما هو قطعيٌّ في الدين ، غير ثابت في العلم . فهذا نؤمن

به ايماناً صادقاً، وان لم يُثبته العلم، لأن العلم لم يصل الى الكشف عن كل شيء، ولم يبلغ ذروة ما فوقها ذروة. والعلماء أنفسهم لا يجرءون ان يقولوا: كُشف لنا الستار عن عالم الغيب.

وما هو قطعيٌّ في الدين، ظنيٌّ في العلم. فهذا نقطع بأنه واقعٌ لا ريب فيه، وان قال العلم انه لم يبلغ درجة اليقين.

وتفصيل هذه القضايا الست يحتاج الى ان يُفردَ برسالة خاصة به. فليس هذا موضعه. وفي النبذة الآتية لمعةٌ مما يكثر الجدال فيه، لأنه ظنيٌّ في العلم والدين. وهو اختلاف اهل الدين والعلم في تكوين العالم.

٩ ـ خلق العوالم وما خلق الله منها اولا:

يرى بعض الدينيين أن خلق الأرض سابق على خلق السماوات والشمس وغيرها من الكواكب، وان السماوات وما يتبعها من الكواكب متأخرة في التكوين عن الارض. لانه يرى ظواهر النصوص الدينية قد تعلقت بذلك. لكنه لا يجزم بأن ما جنح اليه امرٌ قطعي. فلا يمنع ان يكون الامر بالعكس، وان الارض منفصلة عن السماء او عن الشمس.

ولا ريب أن ذلك كلّه امور ظنية، لا حرجَ على من يقول

بواحد منها. ولكن الامر الثابت في العلم والدين هو ان هذه العوالم بأسرها كانت مادة واحدة، شاء ربك ان يقسمها بقدرته الى عوالم لا يحصيها إلا هو. وان هذه المادة هي الماء: «وكان عرشه على الماء». وان هذا الماء قد تحوّل بعضه الى مادة سماها الله «دُخاناً». وقد فسره العلماء بانه بخار مائي — وسماها العلم «سديما»: وكلاهما اسمان لمسمى واحد. وانه من هذا الدخان — او السديم — أوجد الله العوالم على اختلافها. فقد خلقها خلقاً أولياً: باخراجها الي مادة الدخان — او السديم — ثم خلقها خلقاً ثانياً: بتكوينها كتلة كتلة. ثم خلقها خلقاً ثالثاً: بتنظيمها عالماً عالما. وهكذا الي ان تمّ ما أراده سبحانه من تكييف هذه العوالم بالكيفيات التي اقتضتها حكمته الازلية. قال تعالى:

«أَوَلَمْ يَرَ الذين كفروا ان السموات والأرض كانتا رَتْقاً، ففتقناهما؟! وجعلنا من الماء كل شيء حي، أفلا يؤمنون؟!»

فقد فَصّل الله هذه المادة المتحدة تفصيلا، وكوّن منها هذه العوالم. وقد خلقها واحدة، ثم خلّقها تخليقا، وكوّنها على ما اقتضته حكمته تكوينا، منبثقاً بعضها من بعض. فالخلق واحد، والتخليق مختلفٌ في الكيفية والكمية والزمان. وهذا

ما تُشير اليه الآيات الدالة على خلق الارض والسماوات في سبعة ايام : « وان يوماً عند ربك كألف سنة مما تَعُدّون » .

قال ابن كثير في تفسيره : « كان الجميع متصلاً بعضه ببعض في ابتداء الامر . ففتق هذه من هذه » . وقال البغوي في تفسيره : «قال ابن عباس والضحاك وقتادة : « كانتا شيئاً واحداً مُلْتزقتين ، ففتق بينهما بالهواء » . والرَّتْق في اللغة : السدُّ . والفَتقُ : الشقُّ .

وانما آثرت النقل عنهما لأنهما اكثر ما يُعنيان بنقل التفسير المأثور عن سلف الامة .

فلا خلاف في ان المادة قد خلقها الله اولا . ثم خلّقها تخليقاً اقتضاه علمه القديم . فلا يقال خلق الله الأرض اولاً ثم السماء ، او بالعكس ، على معنى انه أوجد مادة هذه قبل مادة هذه . فان مادتها موجودة بخلقه إياها سبحانه قبل تكوينها وتخليقها . فالخلاف ينبغي ان يكون في ايها كوّنه الله اولا ، حتى جعله في هيئته التي هو عليها . وهنا مزالق الأفهام . ونحن لا يضُرّنا شيء من ذلك يثبت . والله ما أشهدنا خلقَ السماوات والأرض ولا خلقَ أنفسنا .

والذي يدل عليه ظاهر القرآن الكريم ان الله بدأ بتخليق الأرض بعض التخليق ، بعد ان فصلها عن المجموعة الكونية ـ وهي الدخان ، او السديم ـ ثم قصد الى تخليق السماوات ثم بعد ذلك قصد الى تخليق الأرض ، فدحاها وجعلها مُمهدة للسكنى ، قابلةً لظهور الحياة عليها . كل ذلك مفهوم من ظواهر الآي الكريمة . وبه يقول جمهور علماء الأمة الاسلامية .

فدُحُوُّ الأرض كان بعد تخليق السماوات وما فيها من الأفلاك . والبدءُ بتخليقها بعض التخليق كان قبل البدء بتخليق السماوات . وكل ذلك مفهوم من قوله تعالى (في سورة البقرة) :

« هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعاً ، ثم استوى الى السماء ، فسواهنّ سبع سموات . وهو بكل خلق عليم »

ومن قوله (في سورة حم السجدة) :

« قل : أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين ، وتجعلون له أنداداً ؟ ! ذلك ربُّ العالمين . وجعل فيها رواسيَ من فوقها . وبارك فيها أقواتها في اربعة ايام سواء للسائلين . ثم استوى الى السماء ، وهي دخان ـ فقال لها وللأرض أئتيا طوعاً او كرهاً ، قالتا : أتينا طائعين »

ومن قوله (في سورة النازعات) :

« أأنتم اشدُّ خلقاً ام السماء ؟ بناها ، رفع سمكها فسواها ، واغطش ليلها ، وأخرج ضحاها . والأرض بعد ذلك دحاها ، أخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال أرساها . متاعاً لكم ولأنعامكم »

فقوله تعالى : « ثم استوى الي السماء » يدل على ان مادة السماوات كانت مخلوقة قبل تخليقها ، لأنها هي والأرض كانتا مادة رتقا ففتقها ، كما يُشعرنا بذلك قوله تعالى : « كانتا رتْقاً ففتقناهما » . وقد ذكرناه من قبل . ولننظر الآن في ظاهر معنى هذه الآيات :

فظاهر آيات (البقرة) و (حم السجدة) يدلُّ على ان بدء تخليق الأرض بعض التخليق كان قبل تخليق السماوات . وظاهر آيات (النازعات) يوضح ذلك، ويدل على ان بدء التخليق للأرض سابق على تخليق السماوات . فقد كوّن الأرض أولا من هذه المادة الدُّخانية - التي كانت هي ومادة السماء كتلة واحدة - ثم خلّق السماء وكوّنها . ثم عاد فدحا الأرض لتكون صالحة للحياة فيها . بأن أخرج منها ماءها ومرعاها، وأرسى فيها

الجبال ، التي بها تتوازن حركتها . هذا ما عليه جمهور المفسرين . وهو ما نقل عن ابن عباس .

كل ذلك وليس في اسلوب القرآن الكريم دليلٌ يقطع بأن التخليق كان على هذا الترتيب . وانما هو دليل ظني يُفهم من ظواهر الآيات . إذ يجوز ان تكون القَبلِيّةُ والبعديّة ـ المستفادتان من لفظَي «بعد وثمّ» ـ هما قَبليّةَ الذِّكر وبعديّته ، لا قَبليّةَ الزمان وبَعديّته . وهذا مألوف في كلام العرب والعجم ، كما قال جماعة من المفسرين . كأن تقول : « فعلتُ كذا و كذا ، ثمَ ـ او بعد ذلك ـ فعلتُ كذا و كذا » ، لا تريد بذلك الترتيب الزماني ، فقد يكون ما ذكرته متأخراً قد فعلته أولا . وتكون غايتك حينئذ ان تسرد ما فعلتَ وانواع ما فعلت ، لا أنك ترمي الى زمان ما فعلت ، ولا الى ذكره مرتبا .

وعلى ذلك يكون ما سرده الله في هذا الشأن في سور مختلفة ـ على سبيل العبرة والموعظة ـ من حكمته المعجزة ، لأنه يعلم أن الأفهام تختلف ، وآراء علماء الكون تتضارب . فلم يذكر آيات الخلق باسلوب قاطع ، كيلا يتعرض كلامه سبحانه لطعن الملحدين ، والزراية عليه من جهلة المتعلمين ، ولئلا يكون

مثاراً للشبهات والمطاعن ، كلّما انتقض رأي ، وحلّ مكانه رأي آخر . وهذا ما ندين الله به . فكلامه عزّ وجل ، فوق الآراء المتضاربة ، وفوق الأفهام المتناقضة : « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيلٌ من حكيم حميد » .

قلنا : إن دلالة هذه الآيات على ترتيب هذا التخليق ظنية ، لا قطعية . ولو كانت قطعية لما اختلف علماء الاسلام في ذلك ، فان منهم من توقّف ، كالقرطبي . ومنهم من قال ـ كمقاتل وقتادة ـ ان خلق السماء مقدم على خلق الأرض بله دحوُها وهذا ما مال اليه (الآلوسي) في تفسيره (سورة النازعات) حيث قال : « والذي أميل اليه أن تسوية السماء بما فيها سابقة على تسوية الأرض بما فيها ، لظهور أمر العلّيّة في الأجرام العُلْوية وأمر المعلوليّة في الأجرام السفلية » . ثم قال : « والله أعلم بحقيقة الحال » . ونحن نقول ايضاً : « الله أعلم بالواقع » ، مردّدين قوله تعالى : « ما أشهدتهم خلقَ السموات والأرض ، ولا خلقَ أنفسهم . وما كنت متخذَ المضلّين عَضُداً » .

أقول ـ والحقّ أحقّ أن يُتّبع ـ : إن كتاب الله ليس بكتاب غايته شرحُ العلوم الكونية ، وتأصيل أُصولها ، وذكر

موضوعاتها مُرتّبةً مُنسقة . بل الغاية من بثّ هذه المسائل في تضاعيف الآيات ، وفي سُوَر مختلفة ، إنما هو العظة والعبرة ، والحثّ على النظر في الأكوان ، وسوقُ النفوس للتأمل في ملكوت الله القادر العليم الحكيم . فهو لم يُعْنَ بذكر الخلق وتكوين العوالم على اسلوب الكتب العلمية ، التي تُؤلف لهذا الغرض .

أما كون الأرض منفصلة عن السماء ، أو عن الشمس ، او بالعكس ، فهذا شيء لم يتعرّض له الدين باسلوب صريح قطعي . وانما عرّفنا الكتابُ الكريم أن ذلك كلّه كان شيئاً واحداً رَتْقاً ففتقه ، وكوّن منه هذه العوالم ، أرضها وسماءَها وكواكبها . غير أن العقل يقضي بأن يكون الشيءُ الصغير منبثقاً من اكبرَ منه . فتكون المادة الأصلية قد انفصل منها جرم صغير سماه الله « ارضاً » ، والجرمُ الكبير — الذي كان متحداً معه ذلك الجرمُ الصغير ، سماه « سماءً » . ثم قسّمه الى عوالم أخر ، منها الكواكب التي عُرفت ، والكواكب التي لم تُعرف . وفي ضمن ذلك المجموعة الشمسية . وقد انضمت الأرض اليها بعد ذلك بالجذب . ويجوز أن يكون قد انفصل

عنها كُتَلٌ عظيمة لم يصل اليها العلم ، ولم تطلها المراصد ، وهي التي سماها الله « السماوات » . ويجوز ان يكون الأمر ـ كما يقول العلم الحاضر ـ أنْ قد انفصلت عن الكتلة الأم ـ أي الدخان او السديم ـ كتلةٌ كانت منها مادة المجموعة الشمسية . ثم انفصلت عن هذه كتلٌ كانت منها الأرض وغيرها ، مما هو تابع للنظام الشمسي . ثم كان التخليق والتكوين على النحو الذي قدّمنا ، أو على نحوٍ آخر ، مما لا يجوز القطع به . فعلى هذا وذاك تكون السماء ـ او المادة الأصلية الكبرى ، التي انبثقت منها الأرض ـ أمّ الأرض وغيرها من العوالم السابحة في هذا البحر الآلهي .

وأما دعوى بعضهم : أن في الأرض عناصر ليست في الشمس ، وأن ذلك قد يوجب القول بأن الشمس منفصلة عن الأرض ، لزيادة عناصر هذه عن تلك ، فهذا لا يدل على المدعى ، لجواز أن يكون حدوثُ هذه العناصر فيها بعد انفصالها عن الشمس ، كما يكون في الأبناء خصائصُ لا تكون في الآباء ، وكما تكون في الثمر مزايا لا تكون في الشجر ، وان في الخمر معنى ليس في العنب .

على أن كل ذلك امور افتراضية وتظنيات . والدين لم يُقرر قاعدة واضحة في هذه الانفصالات ، لأنه لم يأتِ لتحقيق المسائل الفنية والأصول العلمية ، وانما جاء لهداية البشر وارشادهم وتهذيب نفوسهم . ولم يذكر الأكوان إلا ليزداد الانسان ايماناً بربه خالقها ومبدعها الحكيم ، مُفيضِ الحياة والخير والرزق ، الكريم الرءوف الرحيم .

هذا ما أردت ايجازه في هذه العجالة . وقد اختلست الوقت في كتابتها اختلاساً .

والحمد لله أولا وآخراً .

بيروت : في ١٥ من شعبان سنة ١٣٤٩
الموافق ٤ كانون الآخر سنة ١٩٣١



نخبة من مطبوعاتنا

نظرات في السفور والحجاب

للشيخ مصطفى الغلاييني

في نقد كتاب السفور والحجاب

نظرات في الأدب واللغة

له ايضاً

في النقد اللغوي ، ومباحث في اصول اللغة

بطل الريف

أو الأمير عبد الكريم الثائر علي الاستعمار

تعريب الاستاذ عمر ابو النصر

العراق الجديد

له ايضاً

في تطوره الحديث

التصوف عند العرب

صورة جلية لمذهب الصوفي العربي الاسلامي

تأليف الاستاذ جبور عبد النور

الاسلام دين الانسانية

تأليف مولانا محمد علي الهندي الزعيم المشهور

وتعريب السيدة حبيبه شعبان يكن

حبة الرمان، وقصص عربية اخرى

بقلم الاستاذ رئيف خوري

تركيا الحديثة

في تاريخ الترك قديماً وحديثاً

تأليف فؤاد الشمالي

الثقافة

ما هي الثقافة ؟

وأين تكون ؟

وعمن تؤخذ ؟

تأليف الشيخ راغب القباني

العالم في كتاب (جزآن)

هو كتاب الفرد، وكتاب الجماعة

العروة الوثقى

للسيدين العظيمين : جمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده رحمهما الله

الكتاب الضاحك

فتح جديد في فن النكتة والفكاهة

نيب الاختيار

الشّعر الصوفي

الحلاج

ابن الفارض

الشيخ الاكبر

رابعة العدوية

السهروردي

المكتبة الاهلية * في بيروت

المطبعة العصرية
للطباعة والنشر


NYU - BOBST
31142 00179 6682
LA99 .G5
al-Din wa-